مكة حرسها الله تعالى/١٤٤٤هـ

سلسلة الرسائل (٢٤)

التراحم

بين الآباء والأبناء

للشيخة أم عبد الله بنت الشيخ

مقبل بن هادي الوادعي

بسم الله الرحمن الرحيم

alwadei967.blogspot.com telegram.me/alwad3ya

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

أخواتي في الله نحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هذا اللقاء، لقد اجتمعنا في هذا المكان الذي نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعله مباركًا، اجتمعنا فيه زيارة أخوية في الله عَزَّوَجَلَّ، ولنذكِّرَ أنفسنا شيئًا من كتاب الله وسنة رَسُول اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

إن من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجليلة وأَسْمَاها: تراحم الآباء والأبناء فيما بينهم، فمن أجلِّ الفضائل تراحم الآباء والأمهات والأولاد فيما بينهم، رحمة وشفقة ورفق وعطف، وحسن تفاهم.

النَّبِيّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(١).

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

ورأى الأقرع بن حابس النّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقبل صبيًّا له وهو الحسن بن علي، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»(٢) يعني: عشرة من الأولاد ولم يقبِّل منهم أحدًا، هذا يدل على قسوةِ قلبه.

وثبت عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»(٣).

«أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة» أي: لا أملك لك شيئًا إن كان قد نُزعتِ الرحمة من قلبك.

وقد خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مائة رحمة؛ ليتراحم بها الخلق فيما بينهم، ويعطف الأب على ابنه، والابن على أبيه وأمه، كما في «الصحيح»(٤) عن النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا؛ خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ».

---

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

(٣) رواه البخاري(٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

(٤) مسلم (٢٧٥٢) عَنْ أبي هريرة. ولفظ البخاري (٦٤٦٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ العَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ».

والفرس طبيعتها الحركة، ولكن مع ابنها رحيمة، فالحيوانات تعطف على أولادها وتحنُّ عليها، حتى إن القطط والدجاج قد تقفز على من أراد سوءًا بولدها؛ مدافعة عن ولدها، هذه من الرحمة.

فهذه رحمة خلقها الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليتراحم بها الناس فيما بينهم، وتتراحم بها الأسر فيما بينهم، فالأسر السعيدة هي التي تكون متراحمة فيما بينها، متعاطفة، يشفق بعضهم على بعض، ويرحم بعضهم بعضًا.

ثم يكْمِل الله عَزَّوَجَلَّ العدد يوم القيامة، وهي التسعة والتسعون التي ادخرها، فيضعها الله عَزَّوَجَلَّ بين الخلائق، وكما جاء في روايةٍ لمسلم (٢٧٥٣) عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ»، فيقع العفو بين المسلمين؛ لأن هناك مظالمَ بين بعض المسلمين، بعض المظالم والأذى والسب والشتم والشقاق والحقوق، ويوم القيامة يضع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الرحمة بين الأمة، فيحصل العفو الكثير عن تلك المظالم وعن ذلك الأذى، باختيارٍ منهم؛ لأن المظلوم له حق، والظالم معتدي ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١١١].

وهناك من لا يعفو عمن ظلمه، فيطالب بالقصاص ممن ظلمه، فهؤلاء يكون بينهم القصاص، والقصاص أخواتي في الله يوم القيامة إنما يكون بالحسنات والسيئات، النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول كما في «الصحيح»(٥) عن أبي سعيد الخدري: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي

(٥) البخاري (٦٥٣٥).

الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

سبحان الله! كلٌّ من المؤمنين، الموحدين يلهمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعرف منزله في الجنة، مع أنه أول مرة يدخله، لكن هذا إلهام من الله سُبحَانَهُ ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد: ٥-٦]. نسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنة.

فهناك المظالم أخواتي في الله إن لم تعُمَّ الرحمة، فمنهم من يُطالب بالقصاص، فيعطَى من حسنات الظالم للمظلوم، والإنسان في أشدِّ الحاجة إلى الحسنة الواحدة يوم القيامة، في أشد الحاجة كلٌّ يقول: نفسي نفسي ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

فيُعطَى من حسناتِ الظالم للمظلوم، هناك ما فيه دراهم، ما فيه فلوس، ما فيه دراهم ولا دنانير وتنتهي القضية، أو سجن، إنما هي الحسنات والسيئات، وإذا كَمُلَت حسناته قبل أن يوفِّي ما عليه من المظالم والحقوق، يُؤخذ من سيئات صاحبه فتطرح عليه، ثم يلقى في النار، روى الإمام مسلم في «صحيحه»(٢٥٨١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟»، قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

«المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ» هذه الحقيقة عند الناس يُسمُّون الذي ليس له درهم ولا دينار، ما عنده فلوس، يسمونه مفلسًا، لكن المفلس حقيقة: هو المفلس عن الحسنات، بل هذا أشد الإفلاس.

«شَتَمَ هَذَا» سبَّاب، الشتم: السب، تسب الأولاد، تسب الزوج، تسب الجيران، تسب من آذاها، وتسب بغير حق، هذا يا أخوات من أسباب إفلاس الحسنات، فاحفظي لسانك، «وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا»، صوني لسانك عن السباب والشتائم؛ حتى لا تُعطي حسناتك يوم القيامة لغيرك.

«فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ» يؤخذ من حسناته لصاحبه الذي ظلمه، الذي آذاه، الذي سبه، الذي أخذ ماله، فإن لم يقضِ ما عليه أُخِذَ من سيئات صاحبه فطرحت عليه، ثم طرح في النار، نعوذ بالله من النار.

فلنحافظ أخواتي في الله على حسناتنا، فأنت تبذلين الوقت، تصومين، تصلين، تحجِّين، تتصدَّقين، تحرصين على فعل الخير، وإذا بهذه الأعمال تذهب لغيرك، تُقَدِّمين هذه الأعمال في طبق جاهزٍ لمن آذيتها، لمن ظلمتيها، لمن سبيتيها وشتمتيها.

وإن من رحمة الأب والأم بولدهما شدة المصيبة عند مرضه وعند فقده، هذه من أشدِّ المصائب على النفس، روى النسائي في «السنن الكبرى»(٢٠٠٩) عن قرة بن إياس: أَنَّ رَجُلًا، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ ابْنٌ لَهُ فَقَالَ: أَتُحِبُّهُ؟ فَقَالَ: أَحَبَّكَ اللهُ كَمَا أُحِبُّهُ فَمَاتَ

فَفَقَدَهُ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: تُوُفِّيَ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ «مَا يَسُرُّكَ أَنْ لَا تَأْتِيَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ عِنْدَهَا يَسْعَى يَفْتَحُ لَكَ؟»(٦).

«أَحَبَّكَ اللهُ كَمَا أُحِبُّهُ» مبالغة في محبته الشديدة لولده.

ففقده النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فسأل عنه، فقالوا: إنه مات ابنه، فلقيه النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقال له: «مَا يَسُرُّكَ أَنْ لَا تَأْتِيَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ عِنْدَهَا يَسْعَى يَفْتَحُ لَكَ؟» هذا فيه فضل الصبر والاحتساب عند فقد الأحباب، وأن الولد الذي يموت قبل الحنث-قبل البلوغ-يشفع لأبويه، وينتظرهما فيأتيانِ ويجدان أبواب الجنة الثمانية قد فتحت، وهذا لمن صبر واحتسب.

كما نستفيد من هذا الحديث: إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ.

وفيه تعزية المصاب، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عزّى هذا الصحابي الذي مات ابنه وقال: «مَا يَسُرُّكَ أَلَّا تَأْتِيَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ عِنْدَهَا يَسْعَى يَفْتَحُ لَكَ؟»، ففقد الأحبة له حرارة عظيمة على النفوس، ويطفئ حرارتها الصبر والاحتساب والتعزية.

---

(٦) ورواه النسائي أيضًا في «السنن الصغرى»(٢٠٨٨) عن قرة بن إياس قَالَ: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَلَسَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ لَهُ ابْنٌ صَغِيرٌ يَأْتِيهِ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ، فَيُقْعِدُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَهَلَكَ فَامْتَنَعَ الرَّجُلُ أَنْ يَحْضُرَ الْحَلْقَةَ لِذِكْرِ ابْنِهِ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَالِي لَا أَرَى فُلَانًا؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بُنَيُّهُ الَّذِي رَأَيْتَهُ هَلَكَ، فَلَقِيَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَنْ بُنَيِّهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَلَكَ، فَعَزَّاهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا فُلَانُ، أَيُّنَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْكَ أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمُرَكَ، أَوْ لَا تَأْتِي غَدًا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ»، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا لِي هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، قَالَ: «فَذَاكَ لَكَ».

فالتعزية سنة، ولا نغفل أن المعزِّي نفسَهُ سيعزَّى فيه، ليس معناه أن سيخلد في الدنيا ويبقى فيها.

إني معزيك لا أني على ثقة ❁ من الخلود ولكن سُّنة الدين

فما المعزَّى بباقٍ بعد ميته ❁ ولا المعزّي ولو عاشا إلى حين

فانظرن إلى هذه الرحمة والشفقة «أَحَبَّكَ اللهُ كَمَا أُحِبُّهُ».

ودخلت امرأة إلى عائشة ومعها ابنتان لها، فلم تجد عائشة إلا تمرة واحدة من ضيق العيش، فأعطتها المرأة، وهذه المرأة كانت سائلة، فشقت المرأة التمرة نصفين، وأعطت ابنتيها، ولم تأكل شيئًا، فلما خرجت دخل النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فأخبرته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بهذا العمل وهذا الإحسان، فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ» (٧).

«مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ» أي: امتُحِن.

سمَّى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رزق البنت محنة وابتلاءً؛ لأن النفوس مجبولة بحب الذُّكور، ثم رغَّب النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الإحسان إلى هؤلاء البنات؛ ليتنافس الآباء

---

(٧) رواه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) واللفظ له عَنْ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ، وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا، فَسَأَلَتْنِي فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا، فَأَخَذَتْهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا شَيْئًا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ وَابْنَتَاهَا، فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَدَّثْتُهُ حَدِيثَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ».

والأمهات في الإحسان إليهن، فمن أحسن إليهن كن له حجابًا من النار، أي: سترًا من النار.

فما أعظم رحمة الأبوين! يقدمان الولد في الراحة، يقدمانه في المطعم والمشرب، يقدمانه في النوم، يقدِّمان احتياجاته على احتياجات النفس، فانظرن إلى هذه المرأة كيف آثرت ابنتيها على نفسِها، ولم تذق شيئًا مع شدة الحاجة.

كما نستفيد من هذا الحديث: أنه لا مانع أن المرأة تحكي شيئًا لزوجها من المحادثات، ومما حصل في اللقاء من أشياء عادية أو للمصلحة، وإلا فالمجالس لها أماناتها، ما تنقلين كل شيء تسمعينه، وما تنقلين الأوصاف أيضًا، وصف النساء هذه كذا وهذه كذا، إما مدح أو ذم، إما عيوب أو محاسن، فالمجالس لها أماناتها، لكن للحاجة، أو في أشياء عادية، ومن دون ذكر الأوصاف لا بأس بذلك.

ومن رحمة الآباء والأمهات: أن امرأتين خرجتا ومعهما ابناهما، فعدا الذئب على ابن واحدة منهما، فأخذه فاختصمتا كل واحدة تقول: هو ابنها، فتحاكما إلى نبي الله داود عليه الصلاة والسلام، فقضى به للكبرى، حكم به للكبرى، فخرجتا فأخبرتا سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، فقال: لا، ائتوني بالسكين؛ لأشقه بينكما نصفين، فقالت الصغرى: لا، يرحمك الله، هو ولدها، فقضى به للصغرى [٨].

---

(٨) روى البخاري (٦٧٦٩)، ومسلم (١٧٢٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي

استدل نبي الله سليمان بالقرينة، وهي حنان الأم وعطفُها، فشفقتها لا تتحمَّلُ أن يُشق هذا الولد نصفين، فقضى به للصغرى، عرف أنها أمه (٩).

نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام فَقَدَ ولده يوسف، ثم لحقه أخوه فغابا عنه، فأصابه من العناء والتعب حتى عمي، هذا من رحمة الأبوين، عمي بسبب غياب ابنَيه عنه، فلما لحق الآخرُ أخاه يوسف في الغياب، وحاول نبي الله يعقوب في إرجاعِهما فلم يجد فائدة، فبعد ذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾[يوسف: ٨٤]. تذكَّر ولَدَهُ يوسف، مع أن يوسف كان قبل هذا الولد الأخير، ولكن المصيبة الجديدة تذكِّرُ بالمصيبة القديمة، فالمصائب يذكِّرُ

بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لاَ تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَاللَّهِ إِنْ سَمِعْتُ بِالسِّكِّينِ قَطُّ إِلَّا يَوْمَئِذٍ، وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلَّا المُدْيَةَ».

(٩) قال القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣١٤) في الاستنباط من هذا الحديث: فِيهِ مِنَ الْفِقْهِ اسْتِعْمَالُ الْحُكَّامِ الْحِيَلَ الَّتِي تُسْتَخْرَجُ بِهَا الْحُقُوقُ؛ وَذَلِكَ يَكُونُ عَنْ قُوَّةِ الذَّكَاءِ وَالْفَطْنَةِ، وَمُمَارَسَةِ أَحْوَالِ الْخَلْقِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي أَهْلِ التَّقْوَى فِرَاسَةٌ دِينِيَّةٌ، وَتَوَسُّمَاتٌ نُورِيَّةٌ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. اهـ.

وقريب من هذه القصة العجيبة: قوله تَعَالَى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾[الأنبياء].

جاء أن داوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ قَالَ: كَرْمٌ قَدْ أَنْبَتَتْ عَنَاقِيدُهُ فَأَفْسَدَتْهُ، قَالَ: فَقَضَى دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لِصَاحِبِ الْكَرْمِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: غير هذا يا نبي الله: قال: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: تَدْفَعُ الْكَرْمَ إِلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ فَيَقُومُ عَلَيْهِ حَتَّى يَعُودَ كَمَا كَانَ، وَتَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْكَرْمِ فَيُصِيبُ مِنْهَا حَتَّى إِذَا كَانَ الْكَرْمُ كَمَا كَانَ دَفَعْتَ الْكَرْمَ إِلَى صَاحِبِهِ، وَدَفَعْتَ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِهَا، فذلك قوله: فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ.

هذا التفسير هو المشهور في تفسير هذه الآية، وعليه أكثر المفسرين.

بعضها بعضًا، من جاءته مصيبة عافانا الله وإياكن، ونحن في دار المصائب ودار الفتن والمحن، فإنَّهَا تُذَكِّر الماضي، فهنا نبي الله يعقوب يقول: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ يا حسرتا على يوسف، ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ أي: عميت عيناه، أصيب بالعمى، ﴿ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي: مغموم. ولكنه لم ييأس من رحمة الله، لم يقنط، فقال لأولاده: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾. فلا ييأسَنَّ أحد من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مهما كان الحال، ومهما كانت الشدة، فاليأس من رحمة الله كبيرة، القنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ كبيرة من كبائر الذنوب ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾، فذهب أولاده إلى مصر ودخلوا على يوسف وقالوا له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف: ٨٨-٨٩]. قال لإخوانه: ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾، أي: ما أقبح ما وقعتم فيه من الجناية والقطيعة والظلم والعقوق، ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ ﴾ أنت أخونا يوسف؟ فأجابهم وقال: ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

التقوى والصبر من أعظم مفاتيح الفرج، ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾أي: مذنبين، ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

وهذا من حِلْمِ نبي الله يوسف، ما عاتبهم ولا لامَهُم، ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ أي: لا لوم عليكم اليوم، ما فيه لوم ولا عتاب ولا تعيير، مضى ما مضى، ولكن قال لهم بعد ذلك: ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ أمر نبي الله يوسف رسولًا أن يذهب بقميصه إلى أبيه يعقوب ويلقيه على وجهه؛ ليرجع له بصره، ﴿ يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ ﴾ أي: تميزت العير وهي القافلة. ﴿ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ سبحان الله! شمَّ رائحة يوسف قبل أن يصل إليه القميص. ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾[يوسف: ٨٧-٩٥] الآيات.

ثم جمع الله عَزَّوَجَلَّ الشمل، والتقى يعقوب عليه الصلاة والسلام بأبنائه وأحبَّائه، فانظرن من شدة رحمة الأبوين بالولد، قد يسبب مصيبتُه وضياعُهُ العمى لأبويه.

ويُشْبِهُ هذا: ما ثبت عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ

بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ» قُلْنَا: لا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»(١٠).

لحظة عظيمة، أن يضيع الولد وقد يصل الحال إلى حد اليأس، ثم يوجد بعد غيابٍ، قد يكون طويلًا، غاية في الفرح.

كما نستفيد: مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع صحابته، وأنها مجالس علم، مجالس عقيدة وتربية وتعليم.

وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرحم بالخلق من أمهاتهم.

ومن رحمته بنا: أن هدانا للإسلام، هذه أعظم نعمة، وأن هدانا للسنة.

ونبي الله نوح عليه الصلاة والسلام لما كُتِب الغرق على مَن لم يؤمن مِنْ قومه، نصح ولده أن يركب معهم في السفينة فأبى؛ لأنه شقي، نعوذ بالله من الشقاوة، لم يستجب لنصائح أبيه نبي الله نوح، ولكن قال: ﴿ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ ﴾ كان من الهالكين، لم ينفع كلامُهُ ﴿ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾، قال نبي الله نوح: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ ﴾ [هود: ٤٣].

بعد ذلك لعطف الأب وشفقته لم ييأس، نادى ربه وسأله وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا

(١٠) رواه البخاري(٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[هود: ٤٥-٤٦]. فاستسلم نبي الله نوح لحكم الله عَزَّوَجَلَّ.

فحنان الأبوين وشفقتهما شيء عظيم، الولد فَلَذَةُ الكبد، قطعة من الكبد.

وكم تعاني الأم، وكم تتعب بالقيام بمسؤولية أولادها! هذا يبكي، وهذا يمرض، وهذا يجوع، وهذا يريد النظافة، وهذا عنيد لا يتفاهم، ومع ذلك تجد في قلبها رحمة شديدة لهم، فهذه رحمة من الله عَزَّوَجَلَّ جعلها الله في قلوب الأبوين، لا سيما الأم.

وأما قسوة قلوب الأبوين، فهذه من أسباب تفكك الأسر، وتباعد الأبناء عن آبائِهم.

وقد أثنى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على نساء الأنصار؛ لرحمتهن بأبنائهن، كما ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ» رواه الشيخان.

وإن أعظم الرحمة بالأولاد، وأعظم إحسان إليهم تربيتهم تربية صحيحة، تربية إسلامية، تربية على الآداب والأخلاق، تربية على التمسك بالسنة، تربية على تعليمهم كتاب الله وسنة رَسُول اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، هذه أعظم رحمة، وأعظم إحسان.

ليست الرحمة يا أخواتي فقط أن يُقَدَّمَ للولد الطعام والشراب، والأغذية الشهية، والمسكن الطيب الهنيء، ليس هذه الرحمة الحقيقية، الرحمة الحقيقية أننا نقود أولادنا إلى الجنة، إلى المحافظة على الصلوات، إلى البِرِّ والمسابقة، نعلمهم ونربيهم ونحفِّظُهم القرآن، هذه التربية الصحيحة، وهذه هي الرحمة الحقيقية، النّبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقول: «مَنْ قَرَأَ

الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا؟»(١١).

هذه كرامة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأبوي حافظ القرآن، فكيف بالذي حفظ القرآن، كيف بالولد الذي حفظ القرآن! الله عَزَّوَجَلَّ يكرمه كرامة عظيمة، فهذا الحديث فيه تشجيعٌ للأبوين، على أن يكون ولدهما من حملة كتاب الله، من حفاظ القرآن الكريم.

ويقول النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١٢).

هذا الحديث: فيه الحث على أن الإنسان يحرص أن يبقى له شيءٌ من الأعمال الصالحة بعد وفاته؛ لأن الإنسان إذا مات انقطع عمله ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم]. ولكن هناك بعض الأسباب ممكن تبقى لنا بعد وفاتنا، ومنها: الذرية الطيبة، فالذرية الطيبة

---

(١١)حديث معاذ بن أنس عند أبي داود (١٤٥٣)، وأخرجه أحمد (٢٤/٤٠٢) وغيره، من طريق زبان بن فائد، عن سهل، عن أبيه. وزبان وسهل بن معاذ ضعيفان.

وله شاهد، قال الطبراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الأوسط» رقم (٩٦): حدثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حيان، حدثنا موسى بن ناصح، قال: حدثنا جابر بن سليم الزرقي، عن عباد بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُعَلِّمُ وَلَدَهُ الْقُرْآنَ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا تُوِّجَ أَبُوهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِتاجٍ فِي الْجَنَّةِ، يَعْرِفَهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِتَعْلِيمِهِ وَلَدَهُ الْقُرْآنَ فِي الدُّنْيَا». وهذا سند يصلح للاعتبار؛ عباد بن أبي صالح هو عبدُ الله بن أبي صالحٍ السَّمَّان، المدني، لَيِّنُ الحديثِ، فالحديث حسن لغيره، والله أعلم.

وقوله: فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا. أي: ما ظنكم بحامل القرآن العامل به فإن جزاءه أعظم!

منقول من تحقيقي على «التبيان في آداب حملة القرآن» للنووي.

(١٢)رواه مسلم (١٦٣١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

لا تنسَى آباءها ولا أمهاتها، يدعون لهم «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»، ويتصدقون، ويبرونهم بعد وفاتهم، ليس الأمر أنه خلاص مات الأب والأم وانتهى البر، لا، أحسن البر وأصدقه بر الوالدين بعد وفاتهما؛ لأنهما لا يريان معروف الولد، فهذا معناه أن الولد عنده دافع من قلبه، ويبتغي بذلك وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

أيها الأخوات، الرحمة بالأولاد تكون مقرونة بحكمة، ليس من الرحمة بالأولاد أن نتركهم في الشوارع والطرقات، وأن تضيع أوقاتهم في المنتزهات، ومع الجوالات، وإلى كذا وإلى كذا، هذا ليس من الرحمة، الرحمة بالأولاد أن نربيهم وأن نضبطهم، والنزهة والرفاهية تكون في وقت محدود، وإلا ضاعت الأوقات.

وما أسرع ما تمشي الأوقات!

والمرأة كم يذهب من أوقاتها، فمرحلة الطفولة إلى أول الشباب، تذهب في اللعب والضياع، إلا من رحم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بعد ذلك مرحلة الشباب تكون المرأة في مشاغل، مشاغل الأولاد، مشاغل البيت، مشاغل الزوج والمسؤولية، فيذهب جزء كبير من العمر .

لكن ينبغي للمرأة أن تحتسب ما تقوم به من مسؤولية أولادها ورعايتهم، إذا قامت بالخدمة والمسؤولية ينبغي أن تحتسب؛ لأنها إذا احتسبت الأجر تكون الحسنات جارية لها، غير متوقفة أثناء الخدمة والقيام بالمسؤولية، وإذا لم نحتسب فيكون هذا من الذي يذهب من العمر، ولكن العادات تنقلب عبادات في حقِّ الموفَّق.

بعد هذا إلى نحو الخمسين والمرأة في مشاغل ومسؤولية، ولن تُوفَّق في هذه المرحلة؛ -لأنها مرحلة شواغل-، لن توفق من النساء إلا من وفقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجعلت لها شيئًا من الوقت لحفظ القرآن، ومراجعة القرآن، وشيئًا من الوقت لعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولطلب العلم، فإذًا إلى عمر الخمسين قد يذهب عمر المرأة من غير فائدة إلا من رحِمَ، وبعدها الله أعلم بما بعد ذلك؛ لأن الجسم يضعف، والشيخوخة بعد الخمسين تُقْبِل، ومرحلة الشيخوخة متعبة؛ لأنها مرحلة ضعف ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم: ٥٤].

وسبحان الله! مع هذه المشاغل والمتاعب فإن المرأة تجد رحمة بأولادها، بل وكلما كبرت في السن تزداد رحمة بالأولاد، كلَّما كبرت المرأة وكبر الرجل ازدادا رحمة بأبنائهم، حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولكن لا بد أخواتي في الله أن تكون الرحمة مقرونةً بحلم وحكمة، رحمة في موضعها، وشدة في موضعها، مع أيضًا الدعاء، فدعاء الوالدين مستجاب.

ولا نبقى في شكاوى عن أولادنا في مجالسِنا ولقاءاتنا، ماذا يفعل لنا النساء إذا شكونا أولادنا؟! ولا نبقى متضجرات ومتعبات نفسيًّا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نرفع أيدينا إليه، ونتوجه إليه بقلوبِنا أن يرحمنا، وأن ينزل على أولادنا السكينة، وأن يرزقهم الهدوء والبِرَّ والطاعة، وربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يستجيب، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ

﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]، ولا سيما دعوة الوالدين.

فهذا من الخطأ أن تبقى الأم في شكاوى عن أولادها بين النساء، والشكاوى كثرتها من أسباب دخول النار، كما قال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «تَصَدَّقْنَ، فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ»، فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ، فَقَالَتْ: لِمَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ»، قَالَ: فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ، يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ(١٣).

«وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ» وهو الزوج.

وفي رواية: «لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»(١٤).

بمجرد إساءة واحدة من الزوج تجحد جميع المعروف، وهذا هو الأصل في الإنسان إلا من رحم الله جحد المعروف، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾[الإسراء].

فهذا أخواتي في الله بالنسبة لرحمة الأبوين بأبنائهم.

---

(١٣) رواه مسلم (٨٨٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ.

(١٤) رواه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧)عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ».

ولمَّا كانت رحمة الآباء بأبنائهم رحمة غريزية فطرية جبليَّة، فهي تجذبهم إلى الحنوِّ عليهم والعطف والشفقة، جاءت الأدلة بوصية الأبناء بآبائهم أكثر وأكثر.

أما رحمة الأبناء بآبائهم فهذا يكون بالبر والطاعة، والكلمة الطيبة، والخدمة، وإيثار رضاهما على رضا النفس، إنها لسعادة عظيمة لمن قام ببر والديه.

فمن أرادت السعادة فلتحرص على بر أبويها والإحسان إليهم، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ولا يجزي الولد والدَيه بأي حال من الأحوال، ولكنه يؤجر على أدبه مع والديه، على حنانه ورحمته بوالديه، يؤجر على طاعته لوالديه، أما إنه يجازي والديه الجزاء الكامل فهذا لن يكون، فقد قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ»(١٥). حتى وإن اشتراه وأعتقه لا يدل الحديث على أنه يكون قد كافأ أباه وأمه وجازاهما.

وكان هناك رجل يطوف بالبيت وقد حمل أمه على ظهره؛ لأنها عاجزة عن المشي، فحملها على ظهره، ثم التفت إلى عبدالله بن عمر وقال له: أتُراني -أي: أتظنني- جزيت أمي؟ أي: وأنا أحملها على ظهري، فقال عبدالله بن عمر: لا، ولا بزفرة واحدة. وفي رواية: ولا بطلقة واحدة(١٦).

---

(١٥) رواه مسلم (١٥١٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(١٦) عن أبي بُرْدَةَ أَنَّهُ شَهِدَ ابْنَ عُمَرَ وَرَجُلٌ يَمَانِيٌّ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، حَمَلَ أُمَّهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، يَقُولُ:
إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّلُ ۞ إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُهَا لَمْ أُذْعَرِ.

يعني: ولا دقيقة أو أقل من دقيقة، في تلك اللحَظات التي تعانيها الأم عند طلق الولادة، ربما تشاهد الموت، فابن عمر يجزم أنه لا يمكن أن يجزيَها الولد على ذلك؛ لهذا أخواتي في الله كان حق الأم أعظم من حق الأب، جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ» (١٧).

فما أسعد من بر والديه! ما أسعده! يسعد دنيا ودين، لكن يا أخوات هذا يحتاج إلى جهاد، بر الوالدين يحتاج إلى جهاد؛ ولهذا النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»(١٨). وقد يكون الأب والأم فيهما شيء من الشدة والصعوبة، فيحتاج الولد أن يصبر وأن يتحمَّل.

فمن بَرَّ بأبويه كان من السعداء، يرزقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخير الديني والدنيوي، العاجل والآجل، ويرزقه أولادًا بارِّين، الجزاء من جنس العمل، ويرزقه الله عَزَّوَجَلَّ الجنة، وقد سمع النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ صحابيًّا يقرأ في الجنة، وهذه رؤية منامية، يقرأ القرآن وهو في الجنة،

ثُمَّ قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ أَتُرَانِي جَزَيْتُهَا؟ قَالَ: لَا، وَلَا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ.

رواه البخاري في «الأدب المفرد»(١١) بسند صحيح.

وفي رواية: «لَا وَاللَّهِ وَلَا طَلْقَةً وَاحِدَةً» كما في «البر والصلة» للحسين بن حرب المروزي(٣٨)، وهذا يفسر المراد «بِزَفْرَةٍ».

(١٧) رواه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٨) رواه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩) عن عَبْد اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فسمعت النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «كَذَلِكَ الْبِرُّ، كَذَلِكَ الْبِرُّ، وَكَانَ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ»(١٩).

يعني: أن هذا الولد كان بارًّا بأبويه، فنال هذه المرتبة العالية، ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾[آل عمران]، ويدل أيضًا أن بر الوالدين من أسباب حفظ القرآن وتحصيل العلم النافع.

والتقصير حاصل، ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يعفو عنا.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرحم آباءنا ويغفر لهم، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يصلح أولادنا وأولادكم، وأن يجعلهم قرة عين.

والحمد لله رب العالمين.

تم نشر هذه الكلمة ولله الحمد والمنة.

يوم الأحد الموافق ٢١/ من شهر رجب/ لعام ١٤٤٤ للهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام.

(١٩) روى الإمامُ أحمد (٤٢/٢٠٦) عَنْ عَائِشَةَ، والحديث صحيح، وهو في «الصحيح المسند» (١٥٣٦) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.